الصراع بين الخير والشر

منذ فجر التاريخ وصراع البشر بين الخير والشر مستديم، هناك من ينحاز إلى الخير وآخر يسيطر عليه الشر، ومن هنا نشأ الخلاف والاختلاف بين الحضارات وأيضا بين بنى الوطن الواحد. إلا أن الخير هو المنتصر فى النهاية بدليل استمرار الحياة وسيادة الإنسان على الأرض. على أن البعض الآخر يرى أن الشر هو السيد وهو الغالب فى النهاية بدليل الموت؛ وهى الحقيقة التى تطالعنا كل يوم. ناهيك عن حقيقة نهاية الكون كله.

العلاقة بين البشر تستمد توجهاتها من العلاقة بين الخير والشر. وهذا الصراع أزلى بين منظومتى الخير والشر، ومعظم التيارات الدينية والسياسية تستمد مفاهيمها وقيمها الأساسية من تلك المنظومتين لتحشد المناصرين لهما. ثنائية الخير والشر يقابلها نظام رادع فى الدين هو الجنة والنار لأن الإنسان بغريزته لايمكن أن يتبع توجهات معينة دون أن تحقق مصالحه ورغباته بالدرجة الأولى؛ وإلا فإنها تدرج ضمن إطار القدر. حينئذ يعتبر القدر هو المحدد لتوجهات الإنسان نحو قيم الخير أو الشر. وبهذا فإنه غير مسئول عن أفعاله لوجود قوى خفية تحدد اتجاهه وتحكم سلوكه وأداءه فى الحياة. فى حين أن النظام الرادع وما تحتكم إليه منظومة قيم الخير والشر يؤسس لمبدأ تحقيق المصالح الذاتية للإنسان وتلك المصالح تكون عالية الفائدة فى العالم

الآخـر لمن يلازم قيم الخير، حيث يثاب عليهـا بالجنة وما تحقق من رغبـات لاحدود لها. وبالمقابل فإن المعتنق لقيم الشـر يسـعى للحصول علـى منافع آنية فى الحياة الدنيا وعلى حسـاب الآخرين ويعاقب فى العـالم الآخر نتيجة أفعاله وتوجهاته لقيم الشـر بعقاب شـديد، والنار هـى المصير الذى ينتظره فى العالم الآخر. مازالت ثنائية الخير والشـر تعكس سلسلة من التوجهات الثنائية مثل الجنة والنار، والعدل والظلم، والحب والكراهية، والحرية والقهر، والديمقراطية والاستبداد..إلخ.

الخير والشر عند الفلاسفة القدامى

الفيلسوف اليونانى أفلاطون «Plato» (٤٢٨- ٣٤٨ ق.م) بحث فى فلسفة الخير والشر لينشد الفلسفة المثالية والمجتمع المثالى وقال «ان جميع المعقولات تستمد من الخير الأعلى وجودها وماهيتها، وإن الخير الأعلى أسـاس العلم والحقيقة. ومع أن كلا من المعرفة والحقيقية جميل جدا، فمـن الصـواب أن نقول إن صورة الخير الأعلى تمتـاز عليهما وتفوقهما جمالا». أفلاطون فيلسوف ورياضى يونانى، وضع الأسس الأولى للفلسفة الغربية والعلوم. وأفلاطون يعتبر مؤسـس لأكاديمية أثينا التى تعتبر أول معهد للتعليم العالى فى العالم الغربى، وكان تلميذا لسقراط وتأثر بأفكاره كمـا تأثر بإعدامه الظالم، وتتلمذ على يده الفيلسـوف العظيم أرسـطو. إن نبوغ أفلاطون وأسـلوبه ككاتب ظهر فى محاوراته السـقراطية،نحو ثلاثـين محاورة، والتـى تتناول مواضيع فلسـفية مختلفة مثل المعرفة، والمنطق، واللغة، والرياضيات، والميتافيزقا، والأخلاق والسياسـة. كان أفلاطـون يعنى بموضوع المعرفة ليبين أنواعها المختلفة ويرتبها حسـب قيمتهـا فى الكشـف عن الحقيقة ويهتـم اهتماما بالغـا بتعريف العلم

الفلسفى اليقينى والتمييز بينه وبين أنواع المعرفة الأخرى الشائعة عند معاصريه. ونقطة البداية فى نظرية المعرفة الأفلاطونية تتلخص فى إثارة الشك فى العالم الحسى، وذلك حتى يعلم السائر فى طريق التفلسف أن العالم الذى يعيش فيه هو عالم زيف وخداع.

ويقيم أفلاطون تصنيفا لأنواع المعرفة فى العلوم المختلفة على أساس تفرقته بين العالم المرئى والعالم المعقول فيسمى المعرفة التى تتناول العالم الحسى بالظن. أما المعرفة التى تتناول اللامرئى والمعقول بالعلم أو بالتعقل. وقد قسم ذلك إلى أربعة أقسام. القسم الأول يرمز للأشباح والظلال المنعكسة عن العالم المحسوس والمعرفة التى تتناولها يسميها وهما. والقسم الثانى يشير لموجودات العالم الحسى المرئى ويسميها ظنا. القسم الثالث هو التصورات الرياضية ويسميها فكرا استدلاليا. والقسم الرابع يشير إلى المعقولات التى هى أقرب إلى المبادئ والتى هى موجودة بغير حاجة للمحسوس فهى عالم المثل ويسميها التعقل. وكان يرى أن أهم مستويات المعرفة التى يعنى بدراستها ونقدها هى الخبرة الحسية والاستدلال العقلى ثم المعرفة الحدسية التى هى رؤية مباشرة لعالم المُثل والقيم.

ثم نأتى إلى سقراط «Sōkrátēs» وهو فيلسوف يونانى (٤٦٩-٣٩٩ ق م) يعتبر مؤسس الفلسفة الغربية، لم يترك سقراط كتابات خاصة به وكل ما نعرفه عنه مستقى من خلال روايات تلامذته. وخاصة أفلاطون، وهو مشهور بإسهاماته فى مجال علم الأخلاق. وإليه تنسب مفاهيم السخرية السقراطية والمنهج السقراطى الذى مازال مستخدما فى مجال واسع من النقاشات، كما أنه نوع من البيداجوجيا (علم التربية) التى بحسبها تطرح مجموعة من الأسئلة ليس بهدف الحصول على

إجابات فحسب، وإنما كوسيلة لتشجيع الفهم العميق للموضوع المطروح. إن «سقراط»، كما وصفه أفلاطون، هو من قام بإسهامات مهمة وخالدة لمجالات المعرفة والمنطق وقد ظل تأثير أفكاره وأسلوبه قويا حيث صارت أساسا للكثير من أعمال الفلسفة الغربية التى جاءت بعد ذلك. كان سقراط يكرس نفسه للشيء الذى يعتبره أهم مهنة وهو مناقشة الفلسفة، وقبل أن يحكم عليه القضاة بالإعدام قال هذا الفيلسوف العظيم «لن أرفض أو أهجر فلسفتى إلى أن ألفظ النفس الأخير». عمل سقراط على تقويض المفهوم الجماعى الذى انتهجه الآخرون والذى شاع باليونان خلال تلك الفترة، وهو «إن القوة تصنع العدل». وكان يجب عليهم مراعاة تحقيق العدل والسعى وراء الخير، وأن يكون العدل أساس الملك. ومحاولاته لتغيير مفهوم العدل الذى ينتهجه الأثينيون كانت السبب وراء الحكم عليه بالإعدام، وقيل إن محاولات سقراط الاتصال بالشعب وإقناعه بحقوقه كان الفيصل فى حكم الإعدام، كونه يحث المجتمع على الثورة ضد الحكام الظالمون. ووفقا لرواية تلميذه «زينوفون» فقد ألقى «سقراط» دفاعا جريئا أمام هيئة المحلفين، والذى يوضح قسوة العهد القديم وكيف كان «سقراط» سعيدا لأنه سيهرب من هذه القسوة بإعدامه. ورغم أن سقراط كانت لديه الفرصة للهرب، حيث كان بإمكان تابعيه أن يقدموا رشوة لحراس السجن. لكنه اختار البقاء لعدة أسباب هى: لأنه كان يعتقد أن الهروب قد يشير إلى خوفه من الموت وهو الخوف الذى اعتقد بأنه لا وجود له لدى أى فيلسوف حقيقى.ولأنه لو هرب من أثينا، لن تلقى تعاليمه أى نجاح فى مدينة أخرى لأنه سيستمر فى محاورة كل من يقابلهم وسيثير استياءهم بالطبع. ولأنه وافق- على

نحو متعمد- على أن يعيش بالمدينة ويخضع لقوانينها، فهو قد أخضع نفسه ضمنيا لاحتمالية أن يتهمه أهل المدينة بارتكاب الجرائم وأن يدان من قبل هيئة المحلفين. ولو قام بما ينافى ذلك، يعنى أنه يخرق العقد الاجتماعى الذى وقعه مع الدولة وبالتالى سيسبب ضررا لها ومثل هذا التصرف ينافى المبادئ التى ينتهجها.

ورفض سقراط الهروب ليعلى كلمة العدل ويقول إن القانون الظالم يجب أن يعدل بقانون عادل، أما الهروب فهو كسر للقانون وكسر القانون يؤدى إلى فوضى. وبهذه الأفكار والنهاية خُلِّد اسم سقراط على مر التاريخ أما جلاديه فمكانهم مزبلة التاريخ.

أرسطو أو أرسطاطاليس Aristatles (٣٨٤ - ٣٢٢ ق م) فيلسوف إغريقى وتلميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب فى العديد من المواضيع، بما فى ذلك علوم الفيزياء والميتافيزيقا والشعر والمسرح والموسيقى والمنطق والبلاغة والسياسة والحكومة والأخلاق والبيولوجيا وعلم الحيوان، جنبا إلى جنب مع أفلاطون وسقراط (معلم أفلاطون). ويعد أرسطو واحدا من أهم الشخصيات فى تأسيس الفلسفة الغربية. كان أول من أنشأ نظام شامل للفلسفة الغربية. ويشمل الأخلاق وعلم الجمال والمنطق والعلم والسياسة والميتافيزيقا. وجهات نظر أرسطو حول العلوم الفيزيائية استمرت فى العصور الوسطى، وامتد تأثيرها إلى عصر النهضة. على الرغم أنه قد حل محلها قوانين كوبرنيكوس ونيوتن فى الفيزياء. فى الميتافيزيقا فإن مذهب أرسطو كان له تأثير عميق على الفكر الفلسفى واللاهوتى فى التقاليد الإسلامية واليهودية فى القرون الوسطى ولا يزال تأثيره فى اللاهوت المسيحى مستمرا. وخاصة الأرثوذكسية الشرقية،

والتقاليد النصرانية للكنيسة الكاثوليكية. ولا تزال جميع جوانب فلسفة أرسطو موضع دراسة أكاديمية نشطة حتى اليوم.

كان بطليموس فلكيا وجغرافيا شهيرا وهو مصرى من أصل إغريقى (٩٠- ١٦٨ ميلادية) نشأ فى الأسكندرية ودرس فيها. ترجح بعض المصادر أنه من أصل إغريقى ولد فى مصر، فى حين أن رسالة عثر عليها بالعربية تصفه بالصعيدى المصرى فى إشارة إلى أن أصوله تعود إلى جنوبى مصر. توفى فى الأسكندرية سنة ١٦٨ميلادية. ومن أشهر مؤلفاته «المجسطى» و«الجغرافية» وله نظرية فلكية مفادها أن الأرض لا تتحرك وأن الفلك يدور حولها. وبقيت هذه النظرية سارية حتى جاء كوبرنيكوس فى القرن السادس عشر وأثبت دوران الأرض حول الشمس. وقد رسم فى كتابه «الجغرافية» أول خريطة للعالم القديم، كما وضع أول جداول لدرجات الطول والعرض لمواقع عدد من الأماكن المشهورة فى عصره مع خرائط جغرافية لها. وقد بقى هذا الكتاب المرجع الوحيد المعتمد حتى عصر النهضة الأوروبية. كما ألف بطليموس كتبا أخرى فى الضوء والتنجيم وكان لهما أثر كبير فى معاصريه. وقد ترجم العالم العربى حنين بن إسحاق كتابى المجسطى والجغرافية، ثم نقحهما العالم العربى ابن سينا. من أشهر كتبه الأطروحة التنجيمية والتى حاول فيها تكييف الأبراج النجمية إلى فلسفة أرسطو فى عصره وكان هذا الكتاب أساس التنجيم الذى يتبعه المنجمون منذ أقدم العصور.

كانت هناك علاقة مباشرة بين الحضارة الفرعونية وكل من الحضارة اليونانية والرومانية وقد تأثرت تلك الحضارتان بالحضارة الفرعونية، وقد انتقلت العلوم والفنون والفلسفة من مصر إلى أوروبا عن طريق

الرعيل الأول من العلماء والفلاسفة اليونانيين والرومانيين وخاصة سقراط وأفلاطون وأرسطو. والحضارة الحالية ما هى إلا استمرار لتلك الحضارات. رغم أن التنجيم نوع من أنواع التخلف والردة ولكنه كان مقبولا فى تلك الفترة التى لم تصل سطوة العلم فيها كما هى الآن.

الشاعر والفيلسوف الإيطالى من القرن الثالث عشر «دانتى أليجييرى Dante Alighieri» صاحب الكوميديا الإلهية المستوحاة من كتاب «رسالة الغفران» للعبقرى العربى أبى العلاء المعرى الذى سوف يأتى ذكره بعد ذلك. يقول دانتى «إن الاتجاه الطبيعى للإنسان، يجب أن يكون نحو الخير لكن غريزته تدفعه نحو الشر. لذا فإنه يثاب على الخير ويعذب على الشر». إن منظومتى قيم الخير والشر. تحشد كل منهما إلى جانبها سلسلة من المنافع والمصالح، ففى الأولى هناك سلسلة من الوعود بعالم آخر ينتفع منه فقط مناصريه ويعاقب المناوئين له أشد العذاب. وفى الثانية هناك سلسلة من المنافع والمصالح الدنيوية الآنية التى لاتؤمن بالوعود القادمة من العالم الآخر. لقد أسس أفلاطون الفلسفة المثالية وعرف الفلسفة بأنها «السعى الدائم لتحصيل المعرفة الكلية الشاملة التى تستخدم العقل وسيلة لها وتجعل الوصول إلى الحقيقة أسمى غاياتها».

وتجد أن العالم الدنيوى، عالم ملموس وحقيقى ويتوجب استغلاله فى أقصى الحدود لتحقيق المصالح وتلبية الرغبات الآنية. فى حين أن العالم الآخر، هو عالم غير ملموس يعلن عن نفسه من خلال الوعود بتحقيق المصالح وتلبية الرغبات ويعاقب الخارجين على مبادئه وليس له دلالة مادية فى العالم الدنيوى. هكذا فإن توجهات منظومتى قيم الخير والشر تحشد الحجج والبراهين لمناصريها لأجل

كسب المزيد من المناصرين وخلق جبهة قادرة على خوض الصراع مع الجبهة المضادة.

إن معظم المناصرين لمنظومة قيم الخير، هم من عامة الناس غير القادرين على تحقيق مصالحهم الدنيوية، والذين يشعرون فى اللاوعى إنهم مضطهدون ومعرضون للاستغلال من أصحاب التوجهات الشريرة. وهذا لاينفى وجود آخرين ممن يؤمنون، إيمانا مطلقا بقيم الخير وبجدوى الوعود فى العالم الأخر. ولايخلو الأمر ممن يجدون أن قيم الخير تعنى الاحتكام للعقل وعدم استغلال الآخرين لتحقيق رغبات ذاتية، لأن هذا المبدأ بحد ذاته لايتفق والقيم الإنسانية. فى المقابل فإن قسما ليس بالقليل من المناصرين لقيم الشر، هم من أصحاب النفوذ والمال والسلطة والساعين بكل قواهم لتحقيق أكبر قدر من رغباتهم وعلى حساب الآخرين. ويتخذون من قيم الشر مسلكا لتحقيق مصالحهم ورغباتهم الذاتية، ولايؤمنون بالمبادئ المثالية الداعية لإحقاق العدالة والمساواة بين البشر وما تنهل من منظومة قيم الخير توجهاتُها. إن الصراع الأزلى بين منظومتى قيم الخير والشر لم يتوقف عند حدود ما، وإنما هناك دائما حشد مستمر للمبادئ والأعراف التى تفرزها التناقضات والتطورات المحدثة فى التشكيلة الاجتماعية على مدى العصور. وغالبا ما يسقط عدد من مبادئ قيم منظومتى الخير والشر، لأنها لم تعد مقنعة لمناصرى الجبهتين ويحل مكانها مبادئ جديدة قادرة على حشد مناصرين جدد مؤمنين بجدواها فى الصراع.

أبو العلاء المعرى والماسونية

أبو العلاء المعرى (٩٧٣ - ١٠٥٧) شاعر وفيلسوف وأديب عربى من العصر العباسى، ولد وتوفى فى معرة النعمان فى الشمال السورى.

لُقّب برهين المحبسين (محبس البصر ومحبس السجن القصرى أو الاعتزالى) بعد أن اعتزل الناس لبعض الوقت. اشتهر بآرائه وفلسفته المثيرة للجدل فى وقته، وولهه بالحرية والتغنى بها. من أشهرأعماله «رسالة الغفران» أحد الكتب الأكثر تأثيرا فى التراث العربى والعالمى. كتاب يركز على الحضارة العربية الشعرية ولكن بطريقة تمس جميع جوانب الحياة الخاصة، ويحكى فيه زيارة الشاعر للجنة ورؤيته لشعراء الجاهلية العرب هناك، وذلك بعكس المعتقدات الإسلامية أنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون، وأكثر ما يثير الاهتمام فى رسالة الغفران هو عبقرية المعرى فى الاستطراد، والفلسفة العميقة، والبلاغة المذهلة. ومن الواضح أن كتاب رسالة الغفران كان له تأثير قوى على دانتى أليجييرى فى كتابه «الكوميديا الإلهية» وذلك لأن الاثنين فى كتابهما زارا الجنة وتحدثا مع الموتى. كان المعرى مشكوكا فى معتقداته، وندد بالخرافات فى الأديان. وقد يكون أفضل وصف كونه يؤمن بالربوبية وهى قريبة من الماسونية التى انتشرت فى العالم منذ القرن السادس عشر. وقد رفض المعرى استخدام الدين من قبل الخلفاء لفرض سيطرتهم، حيث ظهر من خلال حياة المعرى الكثير من الخلفاء فى مصر وبغداد وحلب الذين كانوا يستغلون الدين كأداة لتبرير وتدعيم سلطتهم والجورعلى شعوبهم. وانتقد المعرى العديد من الفروض مثل الحج، الذى وصفه بأنه «رحلة الوثنى». كما أعرب عن اعتقاده بأن طقوس تقبيل الحجر الأسود فى مكة المكرمة من هراء الأديان التى لم تنتج سوى التعصب الأعمى والتعصب الطائفى وإراقة الدماء لإجبار الناس على معتقداتهم بحد السيف. والغالبية العظمى من المسلمين غير مرحبين بأفكاره الثورية.

المعرى رفـض الوحى الإلهى وكانت عقيدته هى عقيدة الفيلسـوف والزاهـد، الـذى يتخذ العقل دليلا أخلاقيا لـه، والفضيلة هى مكافأته الوحيدة، وذهب فى فلسـفته التشاؤمية إلى الحد الذى أوصى فيه بعدم إنجـاب الأطفال كى يجنبهم آلام الحياة. وفـى مرثاة ألفها عقب فقده لقريـب له جمع حزنه على قريبه مع تأملاته عن سـرعة الزوال وقال: « خفـف الوطء مـا أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجسـاد». ومن ضمن قصائـد المعبرّة عـن وجهة نظره الإلحادية: «هفـت الحنيفة والنصارى ما اهتـدت.... ويهود حارت والمجوس مضللة....اثنان أهل الأرض ذو عقـل بـلا.... دين وآخر ديّـن لا عقل له». إن أبو العـلاء المعرى كان فيلسـوفا ذا طابع خاص وسـبق أهل الغرب فى ماسـونيته. ويجب أن نعـترف أن فلاسـفة الغرب قد أخـذو منه، ليس فقط حسـه القصصى كمـا صنع دانتى فـى الكوميديا الإلهية، بل من فكرة مثل الماسـونية، بل كانـت أفكاره أكثر تحررا من الماسـونية الحديثة التى نشـأت على أفكارها دول مثل الولايات المتحدة الأمريكية وإنجلترا وإسرائيل.

غالبـا ما اتفقـت أفكار أبى العلاء المعرى فـى حبه للحرية وكفاحه من أجلهـا كل من بنيامين فرانكلـين (١٧٠٦ - ١٧٩٠) Benjamin Franklin وهـو مـن أهم وأبرز مؤسسـى الولايات المتحـدة الأمريكية ومجددى الماسونية، وأيضا جورج واشنطن (١٧٢٣- ١٧٩٩) أول رئيس للولايات المتحدة، وهما من الماسونيين الأوائل. من ضمن أقوال فرانكلين الشهيرة «من يضحى بالحرية من أجل الأمن لا يستحق أى منهما».

الماسـونية «Mason» مـن أبـرز المنظمـات الفكرية جـدلا لدرجة أنـه فى سـنة ١٩٧٩ أصدرت جامعـة الدول العربية قـرارا ينص على

«اعتبار الحركة الماسونية هى حركة صهيونية، لأنها تعمل بإيحاء منها لتدعيم الأفكار الصهيونية، كما أنها تساعد على تدفق الأموال على إسرائيل من أعضائها الأمر الذى يدعم اقتصادها ومجهودها الحربى ضد الدول العربية». وفى سنة ١٩٨٤ أصدر الأزهر فتوى كان نصها «إن المسلم لا يمكن أن يكون ماسونيا لأن ارتباطه بالماسونية انسلاخ تدريجى عن شعائر دينه ينتهى بصاحبه إلى الارتداد التام عن دين الله».

والماسونية معناها اللغوى هى «البناؤون» أو «البناؤون الأحرار». هى عبارة عن منظمة عالمية يشترك أفرادها فى أفكار واحدة فيما يخص الأخلاق والميتافيزيقا وتفسير الكون والحياة والإيمان بخالق إلهى، ويتهم البعض الماسونية بأنها «من محاربى الفكر الدينى وناشرى الفكر العلمانى». والماسونية تعنى هندسة باللغة الإنجليزية ويعتقد البعض أن فى هذا رمزا إلى مهندس الكون الأعظم. ومنهم من ينسبهم إلى «حيرام أبيف» الذى لقب بأبو المعمار الذى أشرف على بناء هيكل سليمان. ومنهم من ينسبهم إلى فرسان حراس المعبد الذين شاركوا فى نشوب الحروب الصليبية. حرف G هام فى الماسونية، ويختلف الماسونييون فى تفسير معناه فالبعض يفسره بأنه الحرف الأول لكلمة الخالق الأعظم «God» أو «الله»، ويعتقد البعض الآخر أنه أول حرف من كلمة هندسة Geometry. ويذهب البعض الآخر إلى تحليلات أعمق ويرى إن حرف G مصدره كلمة «gematria»، والتى هى ٣٢ قانونا وضعه أحبار اليهود لتفسير الكتاب المقدس فى سنة ٢٠٠ قبل الميلاد. يردد الماسونيون كثيرا كلمة «المهندس الأعظم للكون» التى تشير إلى الله، إلا أن بعضهم يردها إلى «حيرام أبيف» مهندس هيكل سليمان.

فى سنة ١٧٢٣ كتب جيمس أندرسون «دستور الماسونية» وكان أندرسون ماسونيا بدأ حياته كناشط فى كنيسة اسكتلندا وقام بنيامين فرانكلين بعد ١١ سنة بإعادة طبع الدستور فى عام ١٧٣٤ بعد انتخابه زعيما لنظمة الماسونية فى فرع بنسلفانيا بالولايات المتحدة الأمريكية. وكان فرانكلين يمثل تيارا جديدا فى الماسونية وأضاف هذا التيار عددا من الطقوس الجديدة لمراسم الانتماء للحركة وأضاف مرتبة ثالثة وهى مرتبة الخبير Master Mason للمرتبتين القديمتين، وهما المبتدئ وأهل الصنعة (الخبير).

يصف الماسونيون حركتهم بمجموعة من العقائد الأخلاقية مثل الحب الأخوى والحقيقة والحرية والمساواة، وأن تطبيق هذه المبادئ يتم على شكل طقوس يتدرج العضو فيها من مرتبة مبتدئ إلى مرتبة خبير. ويتم التدرج فى المراتب اعتمادا على قدرة العضو على إدراك حقيقة نفسه والعالم المحيط به وعلاقته بالخالق الأعظم الذى يؤمن به بغض النظر عن الدين الذى يؤمن به العضو. استنادا على الماسونيين، فإن الطقوس المستعملة والتى يصفها البعض بالمرعبة ماهى إلا رموز استعملها البناؤون الأوائل فى القرون الوسطى ولها علاقة بفن العمارة والهندسة. يعتبر الزاوية القائمة والفرجار من أهم رموز الماسونية وهذا الرمز موجود فى جميع مقرات الماسونية إلى جانب الكتاب المقدس الذى يتبعه ذلك المقر. ومن ضمن رموزهم أيضا الهرم ونجمة داوود السداسية. وعند اعتماد عضو جديد يعطى له الحق باختيار أى كتاب سماوى يعتبره ذلك الشخص مقدسا. يستخدم الماسونيون بعض الإشارات السرية ليتعرف بواسطتها أى عضو فى المنظمة على العضو الآخر وتختلف هذه الإشارات من مقر إلى آخر.

الماسونية لا تعتبر نفسها ديانة أو معتقدا بديلا للدين، وتعتبر الماسونية نظرتها عن فكرة الخالق الأعظم مطابقة للأديان السماوية. حسب الفكر الماسونى يعتبر العضو حرا فى اختيار العقيدة، التى يراها مناسبة له للإيمان بفكرة الخالق الأعظم بغض النظر عن المسميات أو الدين الذى يؤمن به الفرد. وقد تم قبول أعضاء حتى من خارج الديانات السماوية مثل البوذية والهندوسية. يصر الماسونيون على أنهم لايقبلون عضوية أشخاص قد ارتدوا عن دين معين ولا تشجع الناس على اتباع دين معين. وتُعتبر الماسونية منظمة رجولية فى بدايات تكوينها ولم يسمح للسيدات بالانضمام للماسونية القديمة إلا فى حالات نادرة. وفى سنة ١٨٨٢ بدأ الفرع فى فرنسا بقبول السيدات. وفى عام ١٩٠٣ بدأت الفروع الماسونية فى الولايات المتحدة بقبول السيدات فى صفوفها. وبحلول عام ١٩٢٢ كانت هناك ٤٥٠ مقرا للسيدات الماسونيات فى العالم. من المعلوم أنه وفى نفس العام سمح للسيدات الأمريكيات فى التصويت فى الانتخابات وترشيح أنفسهن، وهن يعتبرن متخلفات عن أقرانهن فى أوروبا أو حتى فى مصر، التى سمحت للسيدات بالتصويت فى أول برلمان وانتخابات فى مصر سنة ١٨٦٦ ميلادية.

يعتبر البعض من المناهضين للماسونية وبعض المؤمنين بنظرية المؤامرة أن المنظمة فى حقيقتها عبارة عن «منظمة سياسية واقتصادية هدفها الرئيسى هو الهيمنة على العالم عن طريق السيطرة على وسائل الإعلام والاقتصاد العالمى والتغلغل فى صفوف الكنيسة الكاثوليكية». وحسب «الموسوعة الكاثوليكية الحديثة» فإن طوائف مثل شهود يهوه والمورمون وتيارات مثل الشيوعية والاشتراكية والثورة الفرنسية

وحركة مصطفى كمال أتاتورك ماهى إلا تيارات تفرعت من الماسونية. ويعتبر البعض قيام الماسونية بنشر فكرة أن الخلاص أو النجاة بالمفهوم الدينى يمكن تحقيقه من خلال أعمال الفرد الحسنة فقط، تعتبر إنكارا لجميع عقائد الديانات السماوية التى لها شروط أخرى للخلاص أكثر تعقيدا من مجرد كون الشخص يقوم بأعمال جيدة. يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان سنة ١٩٨٣ قال «لايمكن أن تكون كاثوليكيا وماسونيا فى نفس الوقت». يعتقد الكثير أن أقوى دولة علمانية وهى الولايات المتحدة مبنية أساسا على المفاهيم الماسونية، حيث أن ١٣ ممن وقعوا على دستور الولايات المتحدة و١٦ من رؤساء الولايات المتحدة ماسونيون منهم جورج واشنطن وبنيامين فرانكلين.

الشاعر والصحفى اللبنانى إبراهيم اليازجى (١٨٤٧ – ١٩٠٦) الذى عاش فى مصر وعمل كرئيس تحرير جريدة النجاح سنة ١٨٧٢ وأسس مجلة الضياء، كان ماسونيا، وقد كتب قصيدة توضح جانب من جوانب أفكاره الماسونية: «الخير كل الخير... فى هدم الجوامع والكنائس... والشر كل الشر... ما بين العمائم والقلانس... ما هم رجال الله فيكم... بل هم القوم الأبالس... يمشون بين ظهوركم... تحت القلانس والطيالس». الماسونية كانت موجودة فى مصر أيضا منذ عهد محمد على. وانتشرت بصورة أكبر فى عهد الدولة الليبرالية المصرية من سنة ١٩٢٢ وحتى سنة ١٩٥٢. يقول المفكر المصرى الدكتور محمد عمارة «وبعد أن كانت مصر قد ألغت الماسونية وأغلقت محافلها سنة ١٩٦٠، أعادت فى عهد مبارك أندية «الروتارى» و«الليونز»، وهى بدائل الماسونية، فى الانتشار الأخطبوطى فى مصر تحت رعاية زوجة الرئيس

مبارك وأخيها، الذى كانت الأنوار وشجرة عيد الميلاد تضىء قصره فى الكريسماس، حتى لكأنه فى الفاتيكان».

عمران نزار حسين من مواليد سنة ١٩٤٢، هو مفكّر إسلامى من ترينيداد وتوباجو ومن أشد المعادين للماسونية. وتخرج من جامعة كراتشى وجامعة جزر الهند الغربية ودرس فى جامعة الأزهر والتحق بالمعهد العالى للدراسات الدولية والتنمية فى جنيف. ثم عمل فى السلك الدبلوماسى فى وزارة خارجية ترينيداد وتوباغو ولكنه استقال فى عام ١٩٨٥ ليكرس حياته من أجل خدمة الإسلام، عاش فى الولايات المتحدة الأمريكية. قام بتأليف العديد من الكتب عن الإسلام، وكان يلقى محاضرت حول العالم وله محاضرة فى أستراليا عام ٢٠٠٣ تحدث فيها عن أن بعض الدول العربية ستحدث بها ثورات، وبعد محاضرته بثمانية سنوات حصلت الثورات التى توقّعها استنادا على ما يطلق عليه علم آخر الزمان. واتهم عمران حسين الماسونية العالمية – متمثلة فى انجلترا وأمريكا وإسرائيل – سوف تكون وراء تلك الثورات وسوف يستخدمون رصيدهم وخبراتهم فى تجميع الثوار. ولكنه قال إن الثورات سوف تبدأ من الأردن. وهذا لم يحدث بل بدأت من تونس ومصر.

آفة التخلف

استكمالا لمفهوم الخير والشر من جوانب أخرى يقول روبير أوين Robert Owen الشاعر والفيلسوف الإنجليزى من القرن الثامن عشر فى وصفه لفداحة الشر الشخصى أو الشر بمفهومه اليومى بين البشر «من يقع ضحية الشر يفعل الشر بالمقابل» حيث كان يعتقد أن أخلاق الناس (من عيوب وفضائل) هى ثمرة للظروف. ولهذا فهو يرى أن الثورة

الصناعية التى حدثت فى إنجلترا فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر. وانتقلت إلى باقى أوروبا بعد ذلك، فرضت ظروفا جديدة ساعدت الجميع على تحقيق السعادة. وقد قامت تلك الثورة لتحرر أوروبا وأمريكا من حكم الكنيسة والدين لصالح الدولة المدنية العلمانية. ويعتقد البعض أن تلك الثورة هى أم الثورات مثل الثورة الزراعية، وأن تلك الثورة لن تكتمل إلا بعد أن توحد العالم، وما حدث من ثورات فى الكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتى فى نهاية القرن الماضى، وثورات الربيع العربى أو كما يسمونها الخريف الإسلامى، ليس إلا استكمالا للثورة الصناعية لتوحيد العالم.

يقول الأديب المصرى نجيب محفوظ الحاصل على جائزة نوبل فى الأداب سنة ١٩٨٨ «لولا النصر الغالب للخير. ما استطاعت البشرية أن تنمو وتتكاثر وتكون الأمم، وتنتشر وتبدع وتغزو الفضاء، وتعلن حقوق الإنسان، غاية الأمر أن الشر عربيد وصاخب ومرتفع الصوت، لكنه مهزوم فى النهاية».

وللعودة أكثر تحديدا لما هو كائن الآن من خير وشر فى مجتمعنا، فلا نقصد بالتحديد فى هذا المجال الخير والشر الذى ينتشر بين الأفراد، لكننا نقصد الخير والشر الذى يؤثر إيجابا أو سلبا فى المجتمع ككل. بمعنى أنه عندما يقوم أحد الأشخاص بالسرقة فإنه قد فعل شرا وأضر بشخص آخر، وفى الجهة الأخرى، من تبرع بأموال لجهة خيرية لخدمة المجتمع أو حتى لخدمة فرد، فقد قام بخير للجهة الخيرية. يمكن نسمى ذلك بالخير أو الشر المنتشر على المستوى الفردى، وليس له تأثير جماعى ضخم مثل تأثير الشر الناتج عن قوانين وعادات تكبل

المجتمع ككل، أو الخير الناتج من قوانين إيجابية ونظام يسمح بحرية وتقدم المجتمع ككل. ولكننا لا نقلل أيضا من أثر الخير والشر الشخصي أو المنتشر بين الأفراد لأن تفشيه في المجتمع وبصورة وبائية تجعله يتحول إلى عادات وتقاليد، وبالتالي تؤثر في المجتمع ككل إن كان خيرا يعم الخير وإن كان شرا يعم الشر. لكن تظل التغيرات العظمى في أي مجتمع تنتج عادة من تغير النظام بصورة شاملة، مثل التغير الذي يحدث بعد ثورات الشعوب، وقد يساعد هذا على التحضر، إن كان خيرا فيقود إلى تقدم ورقي أبناء هذا الوطن، أو تؤدي إلى التخلف إذا كان الشر هو العربيد السائد في تلك الثورة.

في أحيان كثيرة، وعندما يزداد الشر بين الأفراد في المجتمع الواحد، فإنه يساعد على تغيير أفكار هذا المجتمع ككل لتنمو أعراف تساعد الشر على النمو. وقد تساعد على أن تخرج قوانين تحرم الإنسان من الحرية السياسية أو حرية التعبير، أو أي حريات أخرى، ويبدأ الشر الذي يتسلط على المجتمع ككل بأفكار هدامة. لذا عندما يزداد الشر بين الأفراد بصورة كبيرة حتى يتحول إلى النواة الأولى للشر في المجتمع ككل، ويتحول بعد ذلك إلى قوانين ولوائح شريرة تدمر المجتمع ككل. إذا ترك لبرلمان ما لدولة ما يصمم ويشرع قوانين شريرة لخدمة نفر من الناس، أو لتكبيل حرية الغالبية لمصلحة القلة، إنما يكون هذا هو المعول الذي يؤدي إلى هدم تلك البلد شيئا فشيئا. قد يستمر هذا لسنوات طويلة، ولكن لابد له أن ينتهي، فالشر لابد من أن يندثر يوما ما بعد طول ظلام لأن الطبيعة البشرية ونواميس الطبيعة لا تقبل بقاء الشر على الدوام.

إن التأمل العميق فى موضوع الشر هام جدا لمعرفة كيف أن المجتمع قد وصل إلى أى درجة من التخلف والجهل. وذلك نتيجة لأفكار مريضة مغلوطة وتقاليد بالية تقود المجتمع إلى أقصى درجات التخلف. من المهم أن نعترف بأن معايير العصور الوسطى ليست سائدة الآن، فيمكن أن يكون الخير قديما هو عين الشر الآن. ويمكن أن يكون الشر فى العصور الوسطى هو نفسه الآن أساس الخير. إن ترسيخ فكرة العودة بالمجتمع إلى العصور الوسطى، وبأفكار وحضارة العصور الوسطى، رغم التقدم الحادث وغير المسبوق فى العلوم والتكنولوجيا، والتى غيرت البشرية كلها ما عدا مجتمعنا لهو أمر غريب. لذا كان لابد من وقفة ولو فى سطور فى كتاب، ونحاول أن نعلى الصوت لعل وعسى أن يكون هناك صدى، قبل فوات الأوان. رغم أنف أهل اليمين المغالى يظل الخير هو السائد. والإنسانية سوف تمضى رغم بعض النماذج الإنسانية المتعجرفة. والتى تشد البشرية إلى الخلف. لكن التاريخ سوف يذكر أن هؤلاء المنبوذين كان تأثيرهم محدودا، ويبقى الإنسان والخير والتفاؤل حتى نهاية الوجود.

لكن هل سوف تظل آفة التخلف تنخر فى جزء من العالم، ويتحول باقى العالم إلى البشرية العاقلة؟. هل سيسمح العالم بأن يظل هذا الجزء منه يعانى من هذه الآفة التى يمكن أن تعيد كل الكرة الأرضية إلى عصور ما قبل التاريخ ؟ أظن أن هذا مستحيل لأسباب عديدة منها مثلا مرض مثل الإيدز أو أنفلونزا الطيور أو الخنازير أو الحمى القلاعية. التى تبيد الحيوانات، إنما تهدد حياة البشرية كلها واحتفاظ شعب بتلك الأمراض يضر بالبشرية جمعاء. وهل انتقال العنف والإرهاب من الدول

المتخلفة إلى باقى دول العالم لتنشر التخلف كان له حدود؟ أو هل أمكن للعالم المتقدم منع هذا الخطر؟. لذا كان لابد وأن يكون هناك علاج لآفة التخلف ومنعه من الامتداد إلى جميع أجزاء الكرة الأرضية. إن روشتة علاج آفة التخلف تنبع من تحويل المجتمعات المتخلفة إلى خلية نحل، وملء كل وقتها بالعمل والكسب وتحويل بلادها إلى بلاد غنية من خلال ضخ مشاريع تنموية تجعل البطالة والبطالة المقنعة تنتهيان تماما. وبذلك يتحول الإنسان تدريجيا من إنسان متخلف جاهل إلى إنسان الآلة. وهذا الإنسان أكثر استئناسا من الإنسان المتخلف الجاهل. وبالتالى يمكن تحويل أفكاره التخلفية من الناحية السوداوية إلى ناحية حب الحياة وحب العمل والتمتع بالكسب والممتلكات وبالتالى يتحول من إنسان يكره الحياة ويحاربها. إلى إنسان يتمتع بالحياة ويحاول أن يحياها ويحبها، وفى خلال عقد واحد على الأكثر، تتحول هذه البلاد من بلاد مستهلكة مصدرة للتخلف والإرهاب إلى بلاد منتجة ومصدرة للهدوء، ومنتجة للإنسان المواكب للعصر الذى يمكن أن يكون مفيدا فى المجتمعات الطبيعية المتقدمة.

إن آفة التخلف مرتبطة ارتباطا وثيقا بالموروثات والتقاليد الاجتماعية وليست مرتبطة بالبيئة الطبيعية. هل يمكن أن تنتهى هذه الحالة بالابتعاد عن الموروثات البالية وأفكار عصور التخلف من العصور الوسطى وما قبلها؟. أم أنه لن يتأتى هذا إلا بإلهاء هؤلاء البشر فى عمل طويل جاد له مردود على حياتهم. يساعدهم على العيش فى حياة رغدة ليشعروا بأنفسهم أن الحياة تستحق أن نحياها لا أن نحاربها. إن تعمير الأرض وإفساح المجال للإنسان العاقل ليبدأ مسيرته على الأرض،

هى من الأفكار الهامة التى تساعد على بقاء وسعادة الجنس البشرى وتساعد على رقيه.

علينا أن ننصح المتطرفين من أهل اليمين المغالى، الذين يقودون مجتمعاتنا إلى الخراب وتثبيت آفة التخلف، أن يكونوا أكثر مرونة عند مناقشة القضايا المعاصرة كالعولمة والأصالة، وعدم التشبث المميت بالرأى، وعدم قبول الرأى الآخر، بل ورفض الآخر. وكأن الإنسانية خلقت فقط من أجل أفكارهم، والكون كله يعمل لصالحهم فقط، وبالتالى ضد كل البشر. تلك هى العنصرية البغيضة. إن إغماض عيوننا عن تلك الأفكار لن يترك فى عقولنا إلا أفكارا مشوهة تضعف حضارتنا فى المقام الأول.

من خلال سرد موضوع الخير والشر فإن مجتمعنا هو الآن فى الجانب الخاسر وهو جانب الشر، حيث إن جانب الخير دائما يكون للبناء والتطوير وتثبيت الحضارة الحديثة على سطح الأرض. فنحن وحسب الأفكار السائدة الآن فى مجتمعنا لنا أفكار تحب الفناء أو الاندحار أكثر من البناء والحياة، وهذا يجعلنا وحدنا واقفين والبشرية جمعاء تسير، فهذا لا يعنى إلا أننا الآن نتجه وبسرعة إلى مساعدة الشر كى يسود.

التاريخ ووقائع الحياة تعطينا دروسا بأن من كان مثل مجتمعنا يجتر العصور الوسطى والماضى قد وقع فى أكبر خطأ يمكن أن يقع فيه بشر، ولن يذكرهم التاريخ إلا بأنهم أناس حاولوا إيقاف عجلة التقدم فداستهم أقدام البشرية المتقدمة إلى الأمام، وسينتصر الخير كالعادة وتستمر الحياة، ويستمر الإنسان ينجب ويتكاثر وينمو، ويكوّن الأمم ويُطور الحياة. فإلى أى مدى سوف نظل فى جانب الشر، هذا الجانب المظلم فى حياة البشر الذى دائما ما ينهزم فى النهاية؟.

إن آفة التخلف ليست مقصورة على مجتمعنا فقط فهى موجودة أيضا فى مجتمعات مثل المجتمعات الغربية. ولكن بنسبة صغيرة يمكن أن تصل إلى حوالى ١٠٪ ولكن فى مجتمعاتنا تصل إلى أكثر من ٨٠٪، وبالنظر إلى قلة عددهم فتأثير المتخلفين فى المجتمعات الغربية محدود تماما، وهم عادة وافدون اليهم من مجتمعاتنا، ولكن فى كل الأحوال هم هناك تحت السيطرة. ولكن المجتمعات العاقلة قد أعلنت الحرب بالفعل على مجتمعات التخلف وتصدير الإرهاب، بصورة عسكرية أو اقتصادية. إلى أن يأتى يوم المصير المحتوم حيث تتطور طرق التنقية البشرية بتنقية الحياة الإنسانية ذاتها دون تدمير أو تلويث البيئة التى يحرصون دائما عليها. وبذلك يكون من السهولة وبدون تكلفة تذكر حصارهم إذا لزم الأمر، من أجل باقى العالم المتحضر أو عالم الإنسان العاقل.

من ضمن عوامل تثبيت التخلف وإدارته فى مجتمعنا يأتى منطق تأويل كل شىء لهدف معروف مسبقا، ولا يهم إن كان التأويل مناسبا وصادقا أم لا. لتبسيط تلك المقولة سوف نسرد فكرة فجة لمعرفة خبايا وضمائر بعض المحللين لأحداث العالم. مثلا قولهم إن الحرب الدائرة الآن ضد المنطقة هى حرب إبادة لاستعمار العالم المسالم الخلوق، الذى يدعو إلى التمسك بالتقاليد القديمة، وفى الحقيقة هذا النداء وهذه الطريقة فى الإدارة ليس لها إلا لهدف واحد هو تثبيت فكرة التناحر وجر المريدين من اليمين المتطرف، وزيادة سلطانهم المزيف، ولتثبيت الأمر الواقع، بل زيادة النعرة التخلفية، حتى يكون هناك سبب لمداومة تثبيت التخلف والدفاع عنه. إن دعاة هذا الفكر يدّعون أنهم هم رجال الخير الذى ينشدون إشاعته لنشر أفكارهم وكسلهم وجهلهم، وهم يعلمون

أن هذا الخير ما هو إلا لهدف نهاية الحياة المتحضرة على سطح الأرض وإعادتها للعصور الوسطى. الغريب أن القاعدة العريضة من المكبوتين والمعدمين والمهمشين يمشون خلف هذه الأفكار بل يمكن أن يضحوا من أجل ذلك بالروح وبالحياة، فتخرج أفكار جديدة للموت السريع والنهاية المحتومة والسعى للوصول إلى الخلود فى الحياة الآخرة.

إن الفكر الظلامى دائما يقدم لنا الحلول حتى نبقى فى الظلام. إنه يستغل حتى أفراح البشر، وذلك لتثبيت أفكارهم الهدامة. ولا يكتفون بالمتاجرة فى أحزانهم فقط. فمثلا بعد نجاح الإنسان المصرى فى حرب أكتوبر ١٩٧٣ فى عبور خط بارليف، وتغلبه على نفسه وصنع المعجزة ليحول الهزيمة إلى نصر، يأتى الفكر الظلامى ليقول للمصريين لستم أنتم المنتصرين، لقد كان هناك جنود من الملائكة هم الذين حاربوا وانتصروا. والغريب أن يرد الإنسان العادى غير المكترث بالحياة الثقافية فى مصر، بقوله هل الملائكة كانت تتخاذل هى الأخرى لكونها تركت للإسرائيليين ثغرة فى الدفرسوار ينفذون منها؟!

التخلف والوطن

الشعب المصرى رغم التغييب والتهميش منذ أكثر من نصف قرن إلا أن حضارته موجودة تحت جلده يستدعيها وقت المحن. ولم تكن هناك محنة قدر محنة ضياع جزء غالٍ من أرض الوطن وهو شبة جزيرة سيناء فى سنة ١٩٦٧. وكاد الوطن أن يكون مشلولا بسبب خسارة الحرب وضياع هذا الجزء الغالى من الوطن. وقف الشعب صاغرا مناديا بالثأر وقفة رجل واحد، لا صوت يعلو فوق صوت المعركة. وبعد ٦ سنوات وفى ٦ أكتوبر ١٩٧٣. وفى خلال ٦ ساعات انتصرنا على العدو وعدنا

وعاد جيشنا المصرى إلى سيناء الحبيبة ومسح عار حرب الستة أيام فى ٥ يونيو من ١٩٦٧. إن ست سنوات من عمر الشعوب ليس بالزمن، فهناك شعوب يمكن أن تظل مهزومة عشرات بل مئات السنين، ولكن الشعب المصرى شىء آخر، شعبا صنع قبل ذلك أعظم حضارات الدنيا، فلا يمكن أن يستمر مهزوما لأكثر من ٦ سنوات، شعبا لا يمكن أن يرضى بالذل من أجنبى، ولا يرضى بالذل حتى من ابن وطنه، ولكن صبره يطول عليه قليلا كما حدث فى ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١، وحين سرقت ثورته، فطن سريعا ليخرج من مستنقع التخلف سريعا. إن هذا الشعب استحق أن يسكن أغلى قطعة أرض على الكرة الأرضية، بل تعتبر ناصية الكرة الأرضية جغرافيا. انظر لخريطة العالم لترى مصر وممرها المائى الفريد يربط الشرق بالغرب، وموقعها على البحرين المتوسط والأحمر وشكل شبة جزيرة سيناء بين خليجى البحر الأحمر، وتكون سيناء الجزء العزيز من الوطن ينتمى إلى قارة أسيا، بينما باقى الوطن الحبيب يقع فى قارة إفريقيا. البحر المتوسط يقع فى شمال أرضنا، وتقع أوروبا فى الشمال وهى التى أخذت من أرضنا الحضارة لتنير الكرة الأرضية بعد ذلك. مساحة أرض مصر مليون كيلومتر مربع، وكأن المقاييس قد عدلت وتغيرت لتكون مساحتنا رقما ثابتا. مصر أم الدنيا حسب الأساطير الأوروبية، فإن الأم المصرية هى التى أنجبت البشر الذين سكنوا أوروبا بعد ذلك، لذا سميت أم الدنيا.

إن ٤٠٪ مما تملكه البشرية من آثار موجود فى تلك الأرض. رغم ما أصاب تلك الآثار من انتهاك وسرقة قد ملأت أركان الدنيا الآن. إلا أن ٤٠٪ مازال على أراضيها. ما من ميدان فى مدن العالم

الرئيسية إلا ويتزين بإحدى مسلاتنا الفرعونية، والتى تقف شامخة عالية تحكى عظمة هذا الشعب العظيم، وهذه الأرض الخالدة. وما من متحف فى بقاع الأرض إلا وبه آثار مصرية فرعونية، بل تجد أن أهم ما تحويه تلك المتاحف هى الآثار المصرية. اذهب إلى متحف اللوفر بباريس لترى بعينك آثارنا تملأ مئات الغرف فى المتحف، لدرجة أنه لو استبعدت الآثار المصرية منه لما أصبح متحفا حقيقيا. ولو زرت المتحف البريطانى أو الفرنسى أو الروسى أو الإيطالى أو فى أى من المدن الأمريكية إلا وتجد آثارنا فاكهة كل متحف. أى مدينة من مدن العالم لا تجد فيها إلا ملء العين والقلب من الآثار المصرية. أحزننى سنة ١٩٨٤ أثناء زيارتى لمتحف الفن الجميل ببوسطن بأمريكا، Museum of Fine Art، أن أجد مومياوات وآثارا ليس لها حصر، والذى تحزن له أن العديد من تلك الآثار كتب تحتها «هدية من الرئيس المصرى جمال عبد الناصر أو أنور السادات أو حسنى مبارك» وتاريخ نقل تلك القطعة إلى المتحف، وكأن هذا التراث الذى طال عمره آلاف السنين ملك لهؤلاء الذين ولدوا فى هذه الفترة الرديئة من الزمن. ناهيك عن بعض المصريين الذين يهربون تلك الآثار. كل ذلك جعلنى أتيقن أن هؤلاء المصريين كانوا لا يقدرون حجم مصر وقيمة مصر، وكانوا أقزاما بجوار هذا الوطن العظيم. إن من يبيع أو يهدى أثار بلاده الخالدة، إنما يرتكب أكثر الجرائم قبحا، ويجب أن يكون عقابه أشد عقوبة وضعت لمجرم على سطح الأرض. تلك مصر التى يتربص بها الأقزام الآن لجرها إلى هاوية التخلف باسم بعض المعتقدات والتقاليد البالية لنصرة جانب الشر فى المجتمع.

لم يترك الظلاميون أى مجال للحوار أو التفاوض، فهم يحرموننا من أن نتحـاور لنلتقى وبدلا من أن نختلف لنأتلف، ونغترب لنقترب، وأن نساعد الكل ولا نحكم على الآخرين حكما نهائيا باتا من واقع موروثات منذ آلاف السنين، وكأن الماضى هو الذى يتحدث ويتحكم فينا، ليرسم المستقبل ويحدد مصير المستقبل.

يجب أن يعلم رجالاتنا أن المستقبل هو الذى يبنى المستقبل، والحاضر يساعد على وجود مستقبل أفضل. إذا رضينا وارتضينا أن نجعل الماضى هو الذى يبنى المستقبل، فيجب أن نترك تلك الحضارة القائمة على العلم بحلوها ومرها، ولا نستخدم وسائلهم الحديثة فى الحياة مثل التنقل بالسيارات أو بالطائرات ونعود للجمال، وأن لا نسكن الفيلات والعمائر ونعود للخيام، ولا نستخدم وسائل الاتصال والإنترنت ونكتفى بالحمام الزاجل، ولا نستخدم وسائل الطب الحديثة ونكتفى بالأحجبة وأدوية العطارين. فى هذه الحالة سوف يكون المستقبل هو تكرار للماضى. وهذا سوف يكون من الصعب تنفيذه فى هذا العصر نظرا لأن سكان بلادنا الآن مئات أضعاف من كانوا يعيشون بهذه الطريقة فى العصور القديمة. إننا انتصرنا فى ١٩٧٣ بالجهد والعلم الحديث والتكنولوجيا وليس ببركات أهل الخطوة من اليمين، ولا ننكر فضل الله.

إن عربة أهل اليمين المتطرف مازالت تحاول جر المستقبل إلى الماضى. وكل محاولة من هذا القبيل تعمق جراح المجتمع والحياة فى هذا المجتمع. لكن مسيرة الخير تقود الأرض إلى الأمام رغم أنف هؤلاء. لقد كان اليمين فى العصور الوسطى هو المسئول عن تخلف أوروبا، وكان وراء إجهاض تجارب كثيرة ناجحة أو على الأقل تعطيلها مثل

تجربة نيكولاس كوبرنيكوس وجاليليو جاليلى فى فهم الكون، ووقوف اليمين المخزى ضدهم منذ أكثر من ٤٠٠ سنة. إن ذلك لم يستمر طويلا وتحرر الغرب من التبعية للجهل، لأن الذى يقود عربة الخير الآن فى الغرب هو العلم، والعلم هو السيد فى ذلك العصر، وبلا منازع.

تجربة الهندسة الوراثية Genetic Engineering والاستنساخ Cloning (أو الاستنسال كما يحلو لبعض المترجمين تسميتها) هى مثال آخر على عناد اليمين فى الغرب حتى الآن فى أواخر معركتهم لنصرة التخلف، والتى تبدو وكأن اليمين قد أجهض تجربة الهندسة الوراثية إجهاضا تاما. لكن الهندسة الوراثية والاستنساخ، سوف تخطو خطوات يصعب إيقافها ويصعب على اليمين دحرها مرة أخرى، ويمكن أن يكون اليمين، وهو الرابح حتى الآن فى هذه القضية، سبب تخاذل العلم نفسه فى تلك الفترة فى البحث والتنقيب فى هذا المجال، وعدم قدرته على حل كل ألغاز الاستنساخ، لكن العجلة دائرة والنهاية محتومة لصالح الهندسة الوراثية والخلايا الجذعية Stem Cells والاستنساخ.

إن كل ما فى إمكان العلم أن يفعله سوف يفعله، يمكن أن تفشل التجارب فى البداية، ولكن بعد الفشل يأتى النجاح. فمثلا استنساخ النعجة دوللى قد تم بعد فشل حوالى ٣٠٠ تجربة. ويجب أن نتنبه لذلك، فالعلم صاحب اليد العليا فى هذا العصر وهو صاحب المعجزات التى حققتها البشرية فى السنوات الماضية، خاصة الخمسين سنة الماضية منها. إن متوسط عمر الإنسان كان لا يزيد عن ٤٠ سنة فى أوائل القرن العشرين والآن وصل إلى أكثر من ٧٥ سنة. من منا لم يستفد بصورة أو بأخرى من التقدم العلمى الحادث الآن، فمن منا اليوم ليس عنده

تليفزيون، أو كاميرا أو لا يستخدم الإنترنت أو التليفون المحمول وغير ذلك من تقنيات الاتصالات. إن التطور المذهل فى صناعة الطائرات غيَّر من وجهة نظر البشرية.

اليمين المغالى دائما لا يعترف بالهزيمة، فبعد تجربة دحر فكرة أن الشمس تدور حول الأرض، راح اليمين فى الغرب يؤكد متباهيا أن تلك كانت أفكاره. وبعد أن عرف الطب نوع المولود وهو فى رحم أمه، أخذ اليمين بفكرة أن المعرفة ليس المقصود منها النوع بل تاريخه وسلوكه بعد الميلاد وحتى الموت. وبعد معرفة الخريطة الجينية للإنسان وإمكان المعرفة والتنبؤ بما يمكن أن يصاب به المولود من أمراض فى مستقبل حياته، أتى اليمين وأخذ تلك الأفكار وقال إنها كانت موجودة منذ آلاف السنين، ولكن البشر لا يفهمون ما يقرأون. بل إن كل اختراع جديد ليس إلا تطبيقا لكلمات اليمين منذ بدء التاريخ ولم يضف العلم والتطور الحضارى شيئا سوى أنه اجتهد لإخراج الكنوز من بحارها اليمينية الثمينة، والغريب أيضا أن رجال اليمين هم أنفسهم لا يبذلون أى جهد لإخراج كنوزهم هذه، ويقولون فليخرج الكنوز من يريد أن يخرجها، لأنهم فى الحقيقة يعرفون أن كنوزهم بالية وحملهم ليس له أى فائدة. يجب أن يقف أهل اليمين المغالى وقفة مع النفس حتى يتم تصالحهم مع الحضارة.

إن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على تقييم تجاربه وتقييم حياته ونقد نفسه، ومحاولة تطوره حتى يكون أكثر إنتاجية وبالتالى أكثر سعادة. لكن فى حالة اليمين المغالى، ورغم العلم والحضارة، إلا أن ذلك لا نفع فيه، لأنهم أدخلوا أحكاما هم أنفسهم ليس لهم سلطان

عليهـا أو قـدرة على تغييرها. ولتثبيت ذلك يضطـرون أحيانا إلى وصف حكامهم بالمعصومين من الخطأ أو حتى تحريم مراجعتهم، لكونهم أحيانا يسـمونهم رجالا لن يجود الزمان بمثلهم،أو لهم قدسية ما، إلى آخره من عوامـل تقديس الأشـخاص والأفكار، حتى لا يجد بنو البشـر إلا طريقا واحدا وهو الخضوع لليمين المغالى. والبعض منهم يذهب إلى أكثر من ذلك بالتخويف من المسـتقبل المجهول والتذكير بنهاية الحياة ووهن الإنسان فى هذه المجابهة. ويدعو الإنسان إلى الخنوع والرضى بأحط أنواع الحياة، لأن كل شـىء ليس فى يدك، بل المصائب قد تأتى تباعا لو خرجت عن ما نرسمه لك. فتتحول الحياة البشرية إلى طبعة أخرى من الماضى بصورة تبدو حديثة فقط من حيث الشـكل، فوسـائل التنقل تغيرت، لكن العقل هو عقل إنسـان العصور الوسـطى، وأنماط الحياة الأخرى تغيرت، ليس بسـبب العلم والتطـور الحالى فى مجتمعات الغرب، لكن بسـبب ما هو مقسـوم لنا، فنحن عندما نكون أكثر طاعة نكون أكثر تحقيقا للمكاسـب التى تسمى بالدنيوية.

○○○